الدور الأربعة
بين الضيق و السعة

تأليف:

د. بدوي مطر

bhmatar@yahoo.com

المعادي

القاهرة

علي سبيل التقديم

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام علي خير الأنام ، محمد بن عبد الله ، الذي بعثه الحق نورا للبشرية ، فأضاء الكون بطلعته البهية ، وأنار القلوب بهديه القويم ، ففتح الله بشريعته السمحاء وسنته المشرفة عيونا عميا و قلوبا غلفا .

أما بعد :
أخوة الإسلام والإيمان
يسرني أن أقدم لكم هذا الكتاب المتواضع في جهده ، الثمين في محتواه لما حواه من آيات قرآننا العظيم ، وأحاديث حبيبنا المعصوم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ

تنويه لابد منه :

كان مرجعنا الأساسي كتاب الله وأحاديث الحبيب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ، بالإضافة إلى العديد من كتب سلفنا الصالح في هذا المجال ، والتي كانت كتبهم خير عون لي في إخراج هذا الكتاب ، فجزاهم الله عنا وعن كل المسلمين في كل زمان ومكان، وقد كان منها

كتب ابن كثير في التفسير، وكتاب القرطبي (التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة) ، وكتاب أبي ذرالقلموني (وصف الدور الثلاثة من تفسير ابن كثير) ، وكتاب ابن قيم الجوزية (حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح) ، كتب ابن أبي الدنيا ، وكتاب الشيخ محمد بن صالح المنجد (أعمال القلوب) ، وكتاب (أهوال القبور) ، وكتابي (وصف الجنة ، وصفة النار) عن دار ابن خزيمة ، وكتاب المليباري (الاستعداد للموت) ، وكتاب الشيخ الفاضل : سليمان بن صالح الخراشي (أحوال النساء في الجنة)،وكتاب الأستاذ خالد محمد خالد (رجال حول الرسول) وكتاب الشيخ مقبل بن هادي الوادعي(الشفاعة)

وأعتذر ـ مقدما ـ لمشايخنا وأساتذتنا الأفاضل إن سقط من الذاكرة ـ عفوا ـ اسم أحدهم ، أو أسماء كتبهم ، وعزائي أننا جميعا لا نبتغي من أعمالنا هذه إلا وجه الله ، الذي قال في محكم تنزيله (وما كان ربك نسيا) ، فالأجر والثواب محفوظ لهم عند الله تعالي .

أخوة الإسلام والإيمان:

قبل الولوج في هذا الكتاب أذكركم وأذكر نفسي بأن وظيفتنا في هذا الكون ، والمهمة التي خلقنا الله من أجلها هي أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئا ، قال تعالي في سورة الرحمن :

(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)

وحاشا لله أن يتركنا هكذا تتجاذبنا الأهواء ويتلاعب بنا الشيطان ، ويتركنا فريسة لنفوسنا الأمارة بالسوء ، ولذا فقد بين لنا الحق ـ سبحانه وتعالي ـ السبيل ، فقال في سورة الإنسان : (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا) ، وقال أيضا ـ وقوله الحق ـ في سورة البلد (وهديناه النجدين) أي بينا له الطريقين ، طريق الخير ليتبعه ، وطريق الشر ليتجنبه .

ووعد ـ ووعده الحق ـ من يمم وجهه وعقله وروحه نحو طريق الهداية بالفلاح و بالدخول في حزبه الذي قال عنه في سورة المجادلة : (أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون) ووصم هؤلاء الذين اختاروا طريق الضلال بالخسران و الدخول في حزب الشيطان الذي أخبر عنه ـ في سورة المجادلة فقال تعالي : (ألا أن حزب الشيطان هم الخاسرون)

أخوة الإسلام والإيمان:

كلنا يعلم أننا سنموت عاجلا أم آجلا ، فالموت سيف مسلط علي رقاب العباد ، قال تعالي: (كل نفس ذائقة الموت) ، وقال أيضا (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة) فما دامت هذه هي النهاية ، فلماذا هذا التعلق الجنوني بدنيا فانية ؟ كيف تتعامي أعيننا وعقولنا عن إدراك لب الحقيقة و نشتري الفناء بالبقاء ؟ كيف نبيع جنة عرضها السماوات والأرض بلذة زائلة توردنا التهلكة في نار جهنم ؟

أعلم كما تعلمون أن من آفات الإنسان النسيان والتعلق بالأمل ، وأن آفته الكبرى نسيان ربه بحواسه ـ ربه الذي خلقه وأمده بتلك الحواس ـ فكلنا والحمد لله نعرف أن الله حق ، وأن الموت حق ، وأن البعث حق ، وأن الحساب والميزان والجنة والنار حق .

ولكن ، هل يقف دورنا عند حد المعرفة فقط ؟ لا أظن ، ولا أخالكم تظنون مثلي أن هذا يكفينا كي نؤدي المهمة الموكلة إلينا ـ في هذا الوجود ـ علي خير وجه.

إن سياق الحياة من حولنا ، وضغوطها المادية ، والتزاماتها التي تكبل عقولنا وتستهلك كل جهودنا تجعلنا نري الأشياء ـ كل الأشياء ـ بحواسنا المادية فقط , وبالتالي تتراجع إلى الخلف القيمة الحقيقية لكل مدركاتنا الإيمانية ، فأصبح خوفنا من الشرطي أكبر من خوفنا من الله ، لأننا نري الشرطي بأعيننا ونوقن بأنه قد يدق بابنا في أي لحظة إن أراد ، وصار أيماننا بالمال الذي هو بأيدينا أكبر من الخير الذي وعدنا الله تعالى به إن تصدقنا سواء في الدنيا ، أو في نعيم الآخرة ، وبذلك وصلنا إلي ما نحن عليه الآن ، صرنا نؤمن بالله و نعصيه ، نحب الرسول العظيم ـ صلوات الله عليه وسلم ـ ونخالف سنته ، نعلم أن الموت قادم ولم نستعد له ، و نتمنى الجنة ولا نعمل من أجلها ، نخشى النار و نفعل كل ما يقربنا منها .

أعتقد أن المعادلة المختلة بين ما نؤمن به وبين ما نفعله يمكن أن ينصلح حالها وحالنا حين نقترب ـ بعون الله ومشيئته ـ من درجة اليقين فيمانعلمه. فان وفقنا الله إلى الوصول إلى هذا اليقين سنشعر بحب الله والخوف منه في آن واحد ، وبالتالي لن نجرؤ علي عصيانه ، وسيتحول إيماننا برسولنا العظيم ـ صلي الله عليه وسلم ـ وحبنا له إلى برنامج عمل ـ مستمدا من سنته الشريفة ـ نضعه نصب أعيننا في كل وقت ، وفي كل مكان .

إذا ذاقت نفوسنا طعم اليقين ، فلا يمكن لأحدنا أن يضحي بمقعده في الجنة ، ويستبدله بآخر في النار.

أخوة الإسلام والإيمان:

هل يمكن لأحدنا أن يهنأ كما يريد ، أو أن يضحك ملء شدقيه وهو يعلم ويوقن بأن ملك الموت ـ عليه السلام ـ ينظر إلى كل بيت خمس مرات كل يوم؟ وينظر إلي كل ذي روح كل ساعة ؟
هل يمكن لأحدنا أن يضحي بالجنة ـ رغم كل الصعاب والابتلاءات التي قد يصادفها في حياته ـ حين يعلم ويوقن بأن المؤمن حين يغمس غمسة واحدة في الجنة يقسم بأنه لم يجد شقاء في الدنيا قط ؟
هل يمكن لأحدنا أن يستهين بالنار ـ وسط كل نعيم الدنيا المحيط به ـ حين يعلم ويوقن بأن الشقي من أهل النار حين يغمس غمسة واحدة فيها ، يقسم بأنه لم ير نعيما في الدنيا قط ؟
أعلم كما تعلمون مثلي أننا لن نكون ـ مهما بذلنا من جهد في الطاعة والعبادات ـ مثل صحابة رسول الله ـ صلي الله عليه وسلم ـ فيما وصلوا إليه من يقين ، وتأملوا معي هذا المشهد الإنساني الرائع بين الصحابي الجليل ـ حنظلة ـ الذي لقي الصحابي الجليل ـ أبا بكر الصديق ـ وهو بادي الحزن فسأله أبو بكر عن السر في ذلك ، فأجابه إجابة تنم عن إسلام وإخلاص حقيقي مع الله ، إجابة جعلت رأس الصديق يدور ويحزن هو الآخر، مما حدا بهما إلى الذهاب لرسول الله ـ صلي الله عليه وسلم ـ ليحسم لهما الموقف ، فكانت إجابته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ تنم عن حكمة وفهم لأدق خبايا النفس البشرية ، مع ذاتها ، وفي علاقتها بالله ، ولنقرأ سويا هذا الحديث الشريف :
ص .مسلم (عن حنظلة الأسيدي قال وكان من كتاب رسول الله صلى اللهم عليه وسلم قال لقيني أبو بكر فقال كيف أنت يا حنظلة قال قلت نافق حنظلة قال سبحان الله ما تقول قال قلت نكون عند رسول الله صلى اللهم عليه وسلم

يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين فإذا خرجنا من عند رسول الله صلى اللهم عليه وسلم عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيرا قال أبو بكر فوالله إنا لنلقى مثل هذا فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى اللهم عليه وسلم قلت نافق حنظلة يا رسول الله فقال رسول الله صلى اللهم عليه وسلم وما ذاك قلت يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرا فقال رسول الله صلى اللهم عليه وسلم والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات)

فكما ، ترون هكذا كان حال الصحابة الأجلاء، فما بالكم بحالنا نحن .أنا بالطبع لا أدعو إلي الانعزال أوالدخول في الرهبانية ، ولكن غاية ما أريد قوله أن نضع نصب أعيننا دوما المعني الجليل الذي ترمي إليه الآية الشريفة التي تقول : (كل شيئ هالك إلا وجهه) ، فمادام كل شئ فان وإلى زوال ، فلماذا لا نحيا حياتنا وفقا لمنهج الله مع النفس والأهل والمجتمع بأسره ، وفي ذات الوقت تكون الجنة هي الهدف الأسمى الذي نسعى إلى الوصول إليه ؟.

وإني لأتساءل ، كم من المرات قرأنا الآية الشريفة التي تقول :

(ولكم في رسول الله أسوة حسنة) ؟

وإذا كنا قد قرأناها فلماذا لم نتوقف عند معناها ؟ ذات يوم دخل الفاروق عمر ـ رضي الله عنه ـ علي رسول الله ـ صلي الله عليه وسلم ـ فوجد الحصير قد أثر في جنبه ، فقال يا نبي الله لو اتخذت

فراشا أوثر من هذا فقال ـ صلي الله عليه وسلم في رد عبقري ليرشدنا في كل زمان ومكان:
مسند أحمد(ما لي وللدنيا ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها)
وفي حديث شريف آخر قال المعصوم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كلمات قليلة ، ذات معان كثيرة سيظل أثرها وصداها يتردد دوماحتي تطلع الشمس من مغربها، قال موعظا الأمة الإسلامية والعالم بأسره :
ص . مسلم (يقول العبد مالي مالي إنما له من ماله ثلاث ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى أو أعطى فاقتنى وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس)
وقال المعصوم أيضاـ صلوات الله وسلامه عليه :
االترمذي (من أصبح منكم آمنا في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا)
هذا هو الهدي المبارك ، وتلك هي الأسوة الحسنة في أبهي صورها، وهذه هي قيمة الدنيا الحقيقية في عين من أرسله الإله كي نقتضي به ، قمة في الزهد ، ومصباح للهداية بلا فلسفة ولاتعقيد، وخير أسوة سارت علي ظهر البسيطة ، شرفنا الله با تباع دينه وهديه ، فلماذا نلقي بتلك الحكمة النبوية ذات الإرشاد الإلهي وراء ظهورنا ونبحث عن حلول لمشاكلنا عند أعدائنا، الذين يخططون للقضاء علينا بكل السبل ؟
وإن تساءل سائل كيف السبيل إلى مدارج تلك الأسوة الحسنة وسط طوفان الفسق والدمارالمحيط بنا لكل ماهو نبيل وإيماني ؟، أقول له إن ديننا الذي إرتضاه الله لنا صالح لكل زمان ومكان ـ عكس مايردده أعداء الدين بالداخل والخارج ـ يقول الله تعالي في محكم آياته :
(ما فرطنا في الكتاب من شئ) .

ويقول الرسول العظيم ـ صلوات الله وسلامه عليه :
موطأ مالك (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه)
إذن فكتاب الله ، وسنة نبيه العظيم ـ صلوات الله عليه وسلم ـ هما حبل النجاة الوحيد.
وأذكركم وأذكرنفسي بأن لكل وقت من الزمان أسلحة دماره ، ومقومات بنائه، وبأن فتنة الخمر والنساء ، وغواية الشيطان وأتباعه ، والنفس وأهواءها، كل هذه العوامل وغيرها موجودة منذالأزل ـ رغم اختلاف صورها ـ وستظل حتي يرث الله الأرض ومن عليها،ومع ذلك كان هناك دوما الصلحاء والشرفاء والمؤمنين في كل زمان ومكان .
ولايمكنني تجاوز هذه النقطة دون أن أذكركم وأذكر نفسي بأن المسلم الذي يعايش الناس ويصبر علي كل عوامل الدمار هذه ، أفضل عند الله من هذا الذي يعتزلهم مخافة الوقوع في الخطأ ، وذلك مصداقا للآية الشريفة التي تقول :
(أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى)
أخوة الإسلام والإيمان:
قبل أن أودعكم ، تعالوا معا نسمع ونري ونعايش بكل حواسنا التي منحنا الله إياها هذا المشهدالرائع الذي دار بين اثنين من صحابة الحبيب محمدـ صلوات الله وسلامه عليه ـ
الترمذي (عن سعيد ابن المسيب أنه لقي أبا هريرة فقال أبوهريرة : أسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة . فقال سعيد :أو فيها سوق ؟قال نعم،أخبرني رسول الله ـ صلي الله عليه وسلم ـ أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوها بفضل أعمالهم فيؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا فيزورون الله تبارك وتعالي فيبرز لهم عرشه ،ويتبدي لهم في روضة من رياض

الجنة فيوضع لهم منابر من نور ومنابر من لؤلؤ ومنابر من زبرجد ومنابر من ذهب ومنابر من فضة ويجلس أدناهم وما فيهم دني علي كثبان المسك والكافور مايرون أن أصحاب الكراسي بأفضل منهم مجلسا، قال أبو هريرة:وهل نري ربنا عز وجل ؟ قال: نعم ، قال هل تمارون في رؤية الشمس والقمر ليلة البدر ؟ قلنا لا ، قال فكذلك لاتمارون في رؤية ربكم ولايبقي في ذلك المجلس أحدإلا حاضره الله محاضرة حتي يقول يافلان ابن فلان أتذكر يوم فعلت كذا وكذافيذكره ببعض غدراته في الدنيا، فيقول بلي أفلم تغفر لي،فيقول بلي فبمغفرتي بلغت منزلتك هذه ، قال فبينما هم علي ذلك إذ غشيتهم سحابة من فوقهم فأمطرت عليهم طيبا لم يجدوا مثل ريحه شيئا قط ، قال ثم يقول ربنا تبارك وتعالي قوموا إلى ما أعددت لكم من الكرامة فخذوا ما اشتهيتم ، قال فيأتون سوقا قد حفت بها الملائكة فيها ما لم تنظر العيون إلى مثله ولم تسمع الأذان ولم يخطر علي القلوب، قال فيحمل لنا ما اشتهينا ليس يباع فيه ولا يشتري وفي ذلك السوق يلقي أهل الجنة بعضهم بعضا، قال فيقبل ذي البزة المرتفعة فيلقي من هو دونه وما فيهم دني فيروعه ما يري عليه من اللباس والهيئة فما ينقضي آخر حديثه حتي يتمثل عليه أحسن منه وذلك أنه لا ينبغي لأحدأن يحزن فيها قال ثم ننصرف إلي منازلنا فيلقانا أزواجنا فيقلن مرحبا وأهلا بحبنا لقد جئت وأن بك من الجمال والطيب أفضل مما فارقتنا عليه ، فنقول أنا جالسنا اليوم ربنا الجبار ويحقنا أن ننقلب بمثل ما انقلبنا)

أخوة الإسلام والإيمان:

في أحيان كثيرة يكون الصمت أبلغ من الكلام ، وبعد أن سمعنا مادار بين الصحابيين الجليلين لا

أجد من القول ما يفي بما أريد تعليقا علي هذا المشهد المهيب ، وأترك لكم حرية المعايشة ، والتعليق ، أو الصمت .

وختاما

ما من شك أن كل منا يريد سعة في العيش في الدنيا وفي الآخرة ، ولكن يبقى السؤال الواجب طرحه، والإجابة عليه ألا وهو كيف السبيل إلى ذلك؟ سؤال مصيري يجب الوقوف عنده طويلا والإجابة عليه بطريقة عملية تضمن للفرد سعة داره في الدنيا ، وسعة ونور في قبره ، وخلود في دار النعيم بفضل الله ورحمته.

إن كتابي هذا والذي يحمل عنوان (الدور الأربعة بين الضيق والسعة) يحاول ـ في تواضع ـ أن يبرز هذه المعاني التي ذكرتها آنفا ، ويحاول أيضا الإجابة ـ عن طرق التذكرة ، وعرض مقارنة لابد منها بين ما نحياه في هذه الحياة ، وبين ما بشرنا الله به ، وحذرنا أيضا منه في الآخرة ـ على هذا السؤال المصيري سالف الذكر.

وأرجو أن أكون قد وفقت في ذلك ، وإن قصرت في جهدي هذا فحسبي قول الله تعالي ـ في وصفه للإنسان الذي خلقه وسواه :

(وخلق الإنسان ضعيفا)

صدق الله العظيم .